مجلة العلوم الانسانية الدولية، ١٤٣٣/٢٠١٢ هـ.ق، العدد ١٩ (١) ١٢٧- ١٣٨

المهدوية ودورها في تأسيس سلطة الشرفاء (السعديين والعلويين) في المغرب الإسلامي

ليلا خان احمدي[١]، غلامرضا ظريفيان[٢]، حسن حضرتي[٣]، رسول جعفريان[٤]

تاريخ الوصول: ١٤٣٢/٧/١٨ تاريخ القبول: ١٤٣٢/١٠/١٢

إن المغرب الإسلامي بسبب موقعه الطبيعي والجغرافي الهام والملائم، كان مهيئاً طوال التاريخ لاستقبال الشخصيات المعتقدة بفكرة المنقذ، وملائماً لاحتضان المفاهيم الموعودية، وقد انتشرت فكرة المنقذ الموعود في هذه البلاد في عصر ما قبل الإسلام، كما أنّ حضور بعض التيارات السياسية – الدينية لاسيما مجموعات من الشيعة والعلويين بعد الإسلام قد عزز ونمّا فكرة الإعتقاد بالمهدوية. وقد استخدمت تيارات عديدة هذه العقيدة بغية نيل أهدافها السياسية. ونظراً إلى أسماء وألقاب مؤسسي وبعض ملوك سلالة السعديين والعلويين من الشرفاء الحسنيين وتطابقها مع ألقاب المهدي الموعود – في أحاديث الشيعة والسنة – فإنّه يبدو أنّ هذه المجموعة من الشرفاء لم تكن غافلة عن الإهتمام بالفكر المهدوي ونفوذه لدى المغاربة. لذلك فإنّ هذا البحث يرمي من خلال الأسلوب الوصفي – التحليلي إلى تسليط الضوء على هذا التساؤل وهو:

هل اضطلع الفكر المهدوي بدور فعّال في تأسيس سلطة الشرفاء السعديين والعلويين؟

والفرضية التي تطرح نفسها هي أن الفكر المهدوي شكل أحد العوامل المهمة في نشأة سلطة الشرفاء لاسيما السعديين.

الكلمات الرئيسية: المهدوية، المغرب الإسلامي، الشرفاء، السعديون، العلويون.

١. طالبة دكتوراه في تاريخ الإسلام بجامعة طهران ahmadyleila87@yahoo.com

٢. الأستاذ المساعد في قسم التاريخ بجامعة طهران

٣. الأستاذ المساعد في قسم التاريخ بجامعة طهران

٤. الأستاذ المساعد في قسم التاريخ بجامعة طهران

تمهيد

إنّ دولة الشرفاء تعد تجربة سياسية أخرى لذرية أهل البيت (عليهم السلام) ضمن سلسلة تجارب الدولة والحكم في تاريخ المغرب بل وتاريخ الإسلام.

كما أنّ الظروف السياسية والإجتماعية والدينية في المغرب، جعلت منه بيئة ملائمة لمدعي السلطة، لاسيما الشيعة الذين استطاعوا الإفادة من هذه الظروف لبسط وتوطيد عقيدتهم وأفكارهم. وقد وسّع العلويون – لاسيما أبناء الإمام الحسن(ع)– نطاق نفوذهم ونشروا معتقداتهم أكثر من باقي الفرق الشيعية. ومن المعتقدات والأفكار التي نجح العلويون في نقلها إلى البربر فكرة ظهور المهدي الموعود. إنّ الفكر المهدوي والبشارة بإرساء العدالة والرخاء الإجتماعي بين شرائح المجتمع كان له بالغ الاثر، وقد استخدم البعض هذا الفكر تدريجياً من أجل بلوغ أهدافهم السياسية وأطلقوا على دولتهم اسم دولة المهدي الموعود، كما أطلق قادتهم على أنفسهم أسماء وألقاب مثل المهدي والقائم وأبوالقاسم و... . وهذا الشئ كان مشهوداً في عهد سلطة الشرفاء لاسيما السعديين. وسوف تسلط هذه الدراسة ضمن المنهج التاريخي و الوصفي – التحليلي، تسلط الضوء على ظروف نشأة الفكر المهدوي في المغرب والاستخدامات السياسية له، إضافة إلى دوره في الدولتين السعدية والعلوية.

ظروف نشأة العقيدة المهدوية في المغرب

إن فكرة المنقذ الموعود هي من أشمل الأفكار البشرية وربما يمكن اعتبارها بأنّها تقع ضمن أوسع وأشمل الإهتمامات العامة للبشرية. وقلّما نشهد قوماً أو أمة لا تهتم بأمنية النجاة وفكرة الإنقاذ الكاريزماتي. وقد تجلت هذه العقيدة وبرزت في كل بيئة بأشكال ومظاهر مختلفة. ففي الإسلام عُبر عن فكرة المنقذ الموعود بتعابير مثل المهدوية.

الفكر المهدوي له ماض عريق ووطيد في الإسلام وقد طرح من قبل النبي الأكرم (ص) منذ صدر الإسلام وبيّنت مواصفاته وخصائصه، و بعد ذلك وردت العديد من الأحاديث عن الأئمة (عليهم السلام) في هذا الخصوص. وتحول الإعتقاد بظهور المهدي (عج) لاسيما لدى الشيعة إلى أحد الأركان العقائدية المهمة. (مشكور، ١٣٦٨، ص ١٢٤–١٢٩؛ النجار، ١٤٠٣، ص ١٤٠–١٤٨؛ بدوي، ١٣٧٤، ج ٢، ص ٧٢).

إن البشارة بتحقيق العدالة والرخاء الإجتماعي بظهور المهدي الموعود وتأكيد معظم الأحاديث التي تبين مواصفات دولة المهدي توفر المجالات الإجتماعية لقبول المهدوية أكثر فأكثر، وقد يكون هناك من استخدموا منذ البداية هذه الفكرة فروّجوا الأحاديث لمصلحتهم في سبيل تحقيق مآربهم السياسية كما لفّقوا العديد من الأحاديث في إطار أهدافهم؛ مثل تحديد زمان ومكان معينين لظهور المهدي. وتحولت بذلك فكرة المهدوية إلى دافع سياسي لنيل السلطة والحكم. وكما يقول غولدزيهر في هذا الخصوص: «إنّ العقيدة المهدوية استطاعت خلال تاريخ الإسلام أن تستخدم لتبرير ممارسات بعض المتمردين السياسيين – الدينيين الذين كانوا يرمون إلى تغيير النظام القائم وينوون بذلك إيجاد قاعدة لهم باعتبارهم ممثلي الفكر المهدوي وزجّوا بأجزاء واسعة من العالم الإسلامي في الفوضى والحرب» (غلدزيهر، لا تا، ص ٢٧١–٢٧٢).

ومنذ القرن الأول للهجرة انطلقت أمواج من الإدعاءات بالمهدوية من الشرق واجتاحت سريعاً العديد من مناطق العالم الإسلامي، وكان للقارة الإفريقية لاسيما شمالها وغربها حصة الأسد في التأثر بهذه الفكرة بحيث أنّ أول تجربة لتأسيس دولة على أساس هذه العقيدة تبلورت في هذه المنطقة.

إنّ شمال أفريقيا لاسيما شمالي الغرب وبسبب موقعه الطبيعي والجغرافي الذي كان يتميز به، بيئة خصبة للمتمردين. ومن أبرز الحركات التي اختارت المغرب لمواصلة نشاطاتها ونموها الفكري هي الحركات المبنية على الفكر الشيعي والتي كانت تتعرض بشدة لضغوط ومطاردة الخلفاء الأمويين والعباسيين.

بسط العلويون الحسينيون نفوذهم في المغرب لاسيما منذ هروب بعض قادة الحركة العلوية بمن فيهم إدريس بن عبد الله الكامل المتوفى عام (١٧٥ هـ.ق) ونظراً إلى المعرفة المسبقة لبعض قبائل البربر، بما فيها كتامة بالتشيع، فإنهم استطاعوا أن يكونوا محط اهتمام.

إن ولاء البربر لأهل البيت (عليهم السلام) منذ القرن الأول للهجرة على أنّهم مظهر العدالة والمساواة وإصلاح الوضع السائد، زاد من نفوذ ومنزلة الشيعة بين المغاربة، لذلك كان الشيعة أكثر نجاحاً من باقي المجموعات المناهضة للخلافة التي لجأت إلى المغرب لنيل أهدافها. ومن بين معتقدات الشيعة كانت فكرة انتظار المهدي الموعود التي حظيت باهتمام من قبل البربر.

الظروف التي سادت المغرب في فترة ما قبل الإسلام وبعده، والطريقة الجائرة والظالمة والظروف النفسية والإجتماعية الناتجة عن انعدام العدالة والتمييز الذي مورس من قبل الحكام، جعل سكان المغرب يعيشون أمل تحقق العدالة والمساواة وظهور المنقذ. (لطفي عيسى، ٢٠٠٤، ص ٤٤٤-٤٤٥؛ اسفندياري، ١٣٨٦، ص ٤٠-٤٨؛ نوري، ٢٠٠٧، ص ٢٩٧-٢٩٩؛ حكيمي، ١٣٦٠، ص ٦٩، ٧٣) والأمل بالنجاة والمنقذ هي فكرة ضاربة في العراقة والقدم لدى البربر، لاسيما وأنّ المبشرين المسيحيين الروم في المغرب نثروا بذور البشارة بظهور المسيح الموعود بين أهالي المغرب. وكما يقال بأنّ اغوستين (٣٥٤- ٤٣٠ م) الذي كان من أساقفة هذه المنطقة بشر بفكرة مدينة الله أو المدينة الطوباوية بين البربر. وحتى أنّ هناك روايات نقلت وانتشرت في هذه المنطقة قبل اغوستين بخصوص أثر المانوية بشأن الخير والشر لدى المغاربة. وربما كان لليهود دور في ترويج ونشر هذه الأفكار. (عبد السلام طويلة، ١٤٢٨، ص ٢٥٢- ٢٦٢، ٢٧٢- ٢٧٤؛ نصر، ١٣٨٣، ص ٩٤-٩٥؛ مكاوي، ٢٠٠٧، ص ٢٧؛ خسرو شاهي، ١٣٧٢، ص ١٠٦، ١٥٥؛ نفيسي، ١٣٤٣، ص ٩٠).

برز الفكر المنادي بعقيدة الإنتظار بعد الفتوحات الإسلامية على شكل الإعتقاد بالمهدوية. ومع دخول الإسلام المغرب إعتنق البربر الإسلام على أمل تحقق العدالة ونيل الحقوق الثابتة والمتكافئة، لكن أداء وطريقة حكم الولاة الأمويين والعباسيين بددت هذه الآمال وتمخضت عن احتجاجات واسعة النطاق بين البربر. (بل، ١٩٨٧، ص ١٤٦؛ إبن الاثير، ١٩٥٩، ج ٣، ص ١٥؛ مؤنس، ١٩٥٩، ص ٦٦). وأول مجموعة استفادت من هذه الظروف المؤاتية هم الفاطميون (٢٩٧- ٥٦٧ هـ.ق.) الذين استخدموا الفكر المهدوي على الأرضية الفكرية للمجتمع الإسلامي بالمغرب، واستطاعوا تسجيل نجاحات وإرساء أسس دولة كبيرة. وقد لفق هؤلاء أحاديث مختلفة من أجل كسب ودّ البربر، بما في ذلك أن المهدي يظهر بين سكان البادية أو إن النبي (ص) قال : إنّ الشمس ستشرق من المغرب بعد مضي ٣٠٠ عام على هجرتي. (صادقي، ١٣٨٥، ص ٢٠٥ — ٢١٥؛ البيومي، ١٤١٦، ص ٥٧؛ القاضي نعمان، ١٤٠٩، ج ٣، ص ٤١٩ - ٤٢٧).

و معظم هذه الأحاديث كانت تشير إلى ظهور المهدي من مناطق بعيدة وجهات مثل سوس في المغرب الأقصى، وهو الشئ الذي استعرضه ابن خلدون، حيث تحدث عن أشخاص قدموا أنفسهم على أنهم المهدي الفاطمي في السوس وغمارة. (ابن خلدون، ١٤١٣، ج ١، ص ٣٣٠ — ٣٥٠).

واستخدمت الدول التي نشأت بعد الفاطميين هذه الفكرة بشكل ما لبلوغ مآربها السياسية، فالبنسبة للدولة الموحدية (٥٢٤ – ٦٦٨ هـ.ق)، فقد شكلت فكرة المهدي الموعود أحد الأركان الرئيسية والمهمة في انطلاقة مؤسسها ابن تومرت (المتوفى عام ٥٢٤ هـ.ق). واستثمر ابن تومرت الموقف، من خلال إيجاد ترابط بين الفكر المهدوي وأوضاع زمانه وشخصيته. وأعلن أن الفساد السائد في المجتمع المغربي ينطبق عليه الفساد الذي يسود قبيل ظهور المهدي. ونشر بواسطة تلامذته عقيدة ظهور المهدي من المغرب الأقصى. (عنان، ١٤٠٨، ص ٢١٢؛ ابن قطان، ١٣٦٩، ص ١٢٤؛ باك ١٣٨١، ص ٤٩؛ دار المستتر، ص ١٥٧- ١٦٩، ١٧٣-١٨١؛ البيومي، المرجع نفسه، ص ٥٨).

اختارابن تومرت أفضل الأوقات في استخدام المهدوية، أي عندما كان حكام دولة المرابطين قد أربكوا من خلال سياساتهم الخاطئة الوضع السياسي والإجتماعي والإقتصادي في المغرب، وكانت فكرة الحامي والمنقذ قد سادت المجتمع.

ومن جهة أخرى فإنّ رواج روايات مشهورة بين الشيعة والسنة من أنّ المهدي من ذرية فاطمة (س)، (حسين جاسم، ١٣٦٧، ص ٣٩؛ نهج البلاغة، الخطبة ١٣٨، و...؛ قندزي، ١٤١٦، ج ٣، ص ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٦٥؛ أبو داود، لا تا، ج ٤، ص ١٥-١٦؛ ابن الأثير، م.ن، ج ٧، ص ٩٠؛ ابن خلدون، ج ١، ص ٣٣٢-٣٣٣)، أسهم في سعي ابن تومرت ومن بعده لإيجاد نسب عربي وفاطمي لهم وانتساب أنفسهم إلى أهل البيت (عليهم السلام). (مكاوي، م.ن، ص ٢٨-٢٩) وبعد الموحدين، استثمر الحفصيون (بنو حفص)(٦٢٧ - ٩٨٢ هـ.ق) في أفريقيا فكرة ظهور المنقذ في تحقيق أهدافهم السياسية وأنشاوا دولة قوية، بحيث كان لأراء ابن سبعين (٦٦٩ هـ.ق) بالغ الأثر في إعلان الخليفة الحفصي للمهدوية. (علال الفاسي، ١٩٩٨، ص ٣٨-٤٠).

وفي المغرب الأقصى يوجد المرينيون (بنو مرين) (٦١٤-٨٦٩ هـ.ق.) فعلى الرغم من عدم وجود أخبار عن ادعاء السلاطين المرينيين بالمهدوية، إلاّ أنّ المصادر العديدة المتبقى معظمها من عهد المرينيين تتحدث عن انتساب بنو مرين إلى العرب وتوصل نسبهم إلى الإمام علي (ع) وحتى النبي (ص)، (ابن خلدون، م.ن، ج ٧، ص ٣-١٩٦، ١٢-١٩٧؛ ابن الأحمر، ١٣٢٨، ص ١٧-٢٣؛ ابن أبي زرع، ١٩٧٢، ص ١٤-١٥)بناء على ذلك يمكن التوصل إلى أن المرينيين شأنهم أن استخدموا أسلوب الإنتساب إلى أهل البيت (عليهم السلام) سياسياً.

والنقطة البارزة في عصر المرينيين هي الإهتمام بالتواجد الواسع للمتصوفة لاسيما من جهة تقديم الأسس النظرية المتعلقة بالمهدوية، والتي مهدت السبيل لظهور أدعياء العقيدة المهدوية. (للمزيد من المعلومات أنظر، عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي).

وقد أحدث المتصوفة من خلال رؤاهم الخاصة حول المهدوية، تغيّرات في العالم الإسلامي، (لطفي عيسى، م.ن، ص ٤٤٥-٤٤٦؛ مكاوي، م.ن، ص ٢٤-٢٦) خاصة منذ عصر الغزالي الذي أعطى تعليمات خاصة عن التصوف من أجل الدفاع عن الصوفية، لإنّ اهتمام وإخلاص العلماء والصوفية في المغرب، بمن فيهم أبو مدين (٥٩٤ هـ.ق) الغزالي (٥٠٥ هـ.ق) ومتصوفي الشرق وترددهم أيضاً على الشرق، شكّل أحد قنوات رواج وانتشار أفكار شخصيات مثل الغزالي في المغرب.

وفي عهد المرابطين أصبح الموقف ضد الغزالي والمتصوفة قاسياً و متصلباً (غنيمي، ١٣٦٣، ص ٦١؛ بل، ص ٣٧٨-٣٩١؛ ناصري طاهري، ١٣٧٥، ص ٣١٣-٣٤٢) لكنّ الظروف تغيرت إلى حد ما لصالح المتصوفة في عهد الموحدين. فالإنتشار المجدد لأفكار الغزالي تم عن طريق ابن تومرت الذي

تأثر هو بأفكار الغزالي. ومن ثمّ فإنّ رواج وانتشار أفكار شخصيات مثل ابن سبعين وابن العربي (٦٣٨ هـ.ق) ساعد على تحقق هذا التغير. ووفقاً للنظريات الخاصة بالمتصوفة، فإنّ المهدي كان يمكن أن يكون أي شخص صالح بغض النظر عن نسبه. أو أن يكون المهدي أحد كبار رجالات الصوفيين. (علال الفارسي، م.ن، ص ١٥-١٤٠). وحظيت هكذا الأفكار بإقبال وقبول في أوساط المغرب الإسلامي. وبهذه النظرية التي تنص على إمكانية أن يكون هناك مهدي في أي زمان، وإخراج الفكر المهدوي مما ورد في الروايات الشيعية وأهل السنة، فقد توفرت المسوغات للكثير من المزاعم في مناطق مختلفة من المغرب. (النجفي، ١٤٢١، ص ١٠٦ – ١٠٧؛ ابن عبد الله، م.ن، ص ٢١٢-٢١٩)، مثلما شهدنا خلال الفترة بين القرن الرابع وحتى السابع للهجرة ظهور العديد ممن ادّعوا المهدوية في المغرب واستمر الأمر على هذا المنوال حتى تأسيس دولة السعديين (٩١٦ – ١٠٦٩ هـ.ق) (قادري، ١٤٠٧، ج ١، ص ٣٦٨؛ الناصري السلاوي، ٢٠٠١، ج ٥، ص ١٤-١٥؛ حجي ١٣٤٣، ص ٤١).

إنّ الأسماء والألقاب التي اعتمدها السلاطين السعديون؛ مثل، محمد القائم، محمد المهدي والمنصور و.... تثير تساؤلات عمّا إذا كان الحكام السعديون شأنّهم شأن أسلافهم قد اختاروا هذه الألقاب والأسماء لأغراض سياسية أم لا، وهل أنّ الحكام السعديين قد أبدوا اهتماماً بفكرة المنقذ الموعود؟ والثاني وبسبب عمق نفوذ المتصوفة في هذا العصر، ما مدى استخدام السعديون فكرة المتصوفة لبلوغ اهدافهم؟ سنناقش هنا هذا الموضوع مع افتراض أنّ السعديين استخدموا العقيدة المهدوية للوصول إلى السلطة.

أثر ودور الفكر المهدوي في تأسيس دولة الشرفاء

العصر الذي أسفر عن قيام سلطة الشرفاء السعديين كان بوسعه أن يكون أكثر من الماضي جاهزاً لتقبل أفكار مثل المهدوية. وفضلاً عن التدهور الإجتماعي والإقتصادي السائد، فإنّ العنصر الذي كان بإمكانه المساعدة على رواج وانتشار هذه الفكرة واستخدامها سياسياً هو زحف القوى الإستعمارية. وهي القضية التي مر بها المغرب أكثر من السابق في هذه الحقبة الزمنية وتحولت إلى أهم هاجس يشغل بال وفكر المغاربة (لطفي عيسى، م.ن، ص ٤٤٧).

إنّ حماية حدود البلاد الإسلامية تحولت منذ عصر الموحدين إلى أحد واجبات حكام المغرب وبلغت أهمية هذا الأمر لدرجة أنّ سلطة وقوة الحكومات المغربية كانت تقاس على أساس مدى حفظ وحماية هذه المنطقة، كما أنّ إحدى قنوات اكتساب الشرعية لدول المغرب العربي كانت تتمثل في حفظ هذه الحدود، وهي القضية التي استخدمها بعد الموحدين بنو مرين وبنو وطاس لاكتساب الشرعية ونالوا دعم الناس (ابن أبي زرع، الذخيرة، ص ١٤٣؛ أنيس، ص٤٠٩، ٣٢٨-٢٥؛ ابن السماك، ١٣٥٨، ص ١٧٦؛ قادري، م.ن، ج ٢، ص ١٤٥) بتلك الدرجة. فكلّما تغافلوا عن الإهتمام بهذه القضية فقدوا قاعدتهم ونحوا جانباً.

بعد سقوط الموحدين (٦٦٨ هـ.ق) الذين كانوا قد أنشاوا دولة كبيرة وموحدة في المغرب، فقد المغرب وحدته وأسفر الأمر عن قيام دولة الحفصيين (بنو حفص) في المغرب الأوسط ودولة المرينيين (بنو مرين) في المغرب الأقصى. (ابن عذارى، ١٣٥٩، ج ٣، ص ٢٦٩؛ ابن أبار، ١٩٨٥، ص ٢٦٢؛ ابن أبي زرع، ١٩٧٢، ص ١١٨؛ ابن خلدون، م.ن، ج ٧، ص ٢١٥-١٩٨). إنّ المرينيين الذين نجحوا في تنحية بربر الصنهاجة المصموديين، أقاموا بوصفهم مندوبي الزناتة سلطتهم في المغرب الأقصى. وتولى هؤلاء بصورة رسمية إدارة شؤون المغرب بقوة، وذلك إبتداء من ٦٦٨ هـ.ق. وحتى نهاية سلطة أبو يوسف يعقوب وحظوا في ظل الإنتصارات الباهرة التي سجلوها في

الأندلس باهتمام وولاء المغربيين لهم (ابن أبي زرع، الذخيرة، ص ٨٥ فصاعداً؛ ابن خلدون، م.ن، ج ٧، ص ٢١٦-٢٤٧؛ الناصري السلاوي، م.ن، ج ٤، ص ٤٣ فصاعداً).

ثم تراجعت قوة الدولة المرينية بعد أبى يوسف شيئاً فشيئاً. فالخلافات الداخلية بشأن تولي السلطة والنفوذ المتعاظم للوزراء وتدخلهم في شؤون الحكم ساهمت كلها في تقويض سلطة المرينيين وإبعادها عن رسالة الجهاد في الأندلس وحماية الثغور والتخوم الإسلامية (ابن أبي زرع، أنيس المطرب، ص ٥١٣-٥٦٠؛ ابن خلدون، م.ن، ج ٧، ص ٢٧٦-٢٧٧؛ الحركات، ج ٢، ص ٦٥).

إنّ قضية الأندلس والجهاد ضد الأوروبيين، لم تكن مهمة المغاربة فحسب، بل أصبح شغل العالم الإسلامي الشاغل بأسره، وكان لها أثر كبير في إضفاء الشرعية على الدول التي تعاقبت على حكم المغرب. فالمشاكل الداخلية التي كان يعاني منها المرينيين، صرفتهم عن الإهتمام بهذه القضية وكانت نتيجتها تقدم الدول الأوروبية عند حدود المغرب واحتلال موانئ المغرب المهمة والإستراتيجية بما فيها سبته وطنجة (قادري، م.ن، ج ١، ص ١٥٧؛ الحركات، ج ٢، ص ٥؛ لابيدوس، ١٣٧٦، ج ٢، ص ٥٢٦-٥٢٧). وهذه القضية والإضطرابات الداخلية والقلاقل العديدة التي أثارها العرب والبربر الصنهاجة والأزمات الإقتصادية أدّت كلها إلى تذمّر شرائح المجتمع لاسيما سكان المناطق الحدودية الذين كانوا معرضين لخطر هجمات الأوروبيين، وبقيت طلباتهم من السلطان المريني لمواجهة الهجمات الاوروبية بلا ردّ. (الناصري السلاوي، م.ن، ج ٤، ص ٢٩٣- ٢٩٦؛ المؤنس، ١٤١٤، ج ٣، ص ٦٧-٦٨).

وعلى الرغم من أنّها أُتخذت إجراءات قيمة في العصر المريني الأول لإنعاش الحياة الإقتصادية، لكن العصر الثاني لم يشهد حركة تبادل تجاري نشط بسبب الأوضاع السياسية المتدهورة التي كانت تسود تلك الحقبة التي تأثرت بالنزاعات الداخلية وحركات الإنفصال والتهديدات الخارجية، مما أدى إلى تراجع النشاط في القطاعات الزراعية والصناعية و... بسبب المناخ السائد والتدهور الأمني وإنعدام الإستقرار (للمزيد من المعلومات راجع، الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والاندلس في العصر المريني). مما تسبب بتصاعد الإستياء العام.

و في ظل ظروف كهذه تصرف كل قسم من الدولة المرينية كوحدة سياسية مستقلة، وحصل على أمر الجهاد من دون إذن الحكومة المركزية. وكان شيوخ المتصوفة يتولون قيادة وزعامة معظم هذه الوحدات، من خلال إدارة الجهاد، وانتهى الأمر بسقوط الدولة المرينية مع خلع عبد الحق المريني (٨٦٩ هـ.ق) آخر السلاطين المرينيين من الحكم. (ابن القاضي، ١٩٠٧، ج ٢، ص ١٥٦؛ الحركات، ج ٢، ص ٦٣) لكن الوطاسيين (بنو وطاس) لم يستطيعوا إعادة توحيد المغرب في عصر الموحدين والعصر المريني الأول والحؤول دون تقسيم وتدهور أوضاعه.

وكـــان بنو وطاس أضعف من أن يقفوا بوجه الغزو الأوروبي، ويحصلوا على السند الجماهيري الواسع . لذلك فإن أداءهم الخاطئ وضعفهم وعجزهم والظلم والعسف اللذين مارسهما سلاطينهم والأزمة الإقتصادية والإجتماعية دفعت المغاربة مرة أخرى إلى البحث عن ملاذ وعقد الأمل على ظهور المنقذ. وفي ظل ظروف كهذه وفيما كانت العصبية القبلية قد فقدت مفعولها في مواجهة السلطة القائمة، أصبح الدين ملجأً وملاذاً للناس، ولجأ المغاربة إلى المتصوفة والزوايا على أمل النجاة من الوضع السائد، وتولى

المتصوفة آنذاك قيادة الجهاد. وقد استثمروا الظروف الناجمة عن الغزو الأوروبي لصالحهم أكثر من المجموعات الأخرى، وأخذوا على عاتقهم مسؤولية قيادة الجهاد وتنظيم المجموعات الشعبية، ليوفروا بذلك فرص وظروف نشاطهم السياسي.

و في ظل الدعم الجماهيري ازدادت المذاهب الصوفية والزوايا، وتولى الصوفية القيادة و الزعامة السياسية والدينية و وصل الدور بعد مدة إلى عنصرالشرافة وتحول الشرفاء مرة أخرى إلى نقطة أمل لدى المغاربة من خلال جهود الصوفية، فإن الأمل بالنجاة والتحرر من غزو المستعمرين وإنقاذ الدولة الإسلامية كان بوسعه أن يوفر الأرضية المؤاتية لمواجهة هذه القوة السلطوية من خلال إدعاء المهدوية الأمر الذي استخدمه الشرفاء السعديون منذ البداية بشكل جيد. (لطفي عيسى، م.ن، ص ٤٥٦-٤٥٧). إنّ الخوف والقلق من دخول البرتغاليين إلى سوس وخيبة الأمل من التمتع بدعم وحماية الوطاسيين، دفع أهالي هذه المنطقة إلى التفكير بإيجاد مخارج أخرى للنجاة (الناصري السلاوي، م.ن، ج ٥، ص ١٤-١٥؛ الوفراني، م.ن، ص ١٠-١١).

و في ظل ظروف كهذه فإن أيّ شخص بالتأكيد كان بإمكانه الوقوف بوجه اعتداءات المستعمرين وتولي قيادة الجهاد وأن يصبح في أعين الناس ذلك المنقذ الموعود الذي كانوا ينتظرون ظهوره.

استثمر الشرفاء السعديون الظروف السائدة لصالحهم واستطاعوا في ظل التمتع بدعم وإسناد فرق من المتصوفة لاسيما الفرقة الجزولية، تولي زمام الأمور (الناصري السلاوي، المرجع نفسه، ج ٥، ص ١٤؛ الوفراني، المرجع نفسه، ص ١٠-١١؛ الحجي، ص ٢٦، الحركات، ج ٢، ص ٢٤٤).

ومن جهة أخرى، فإنّ تعاظم نفوذ المتصوفة ورواج أفكارهم ومعتقداتهم، أحدث تطوراً سياسياً - إجتماعيا في المغرب، بما في ذلك طرح العقيدة المهدوية من قبل الصوفيين، و وفر أرضية للاستخدام السياسي لها لأدعياء السلطة (لطفي عيسى، م.ن، ص ٤٥٢؛ مكاوي، م.ن، ص ٣٠؛ ابن عبد الله، م.ن، ص ٢١١). لدرجة أنّ عدد المدعين بالمهدوية قد تزايد مقارنة بالسابق، وظهر أناس كثيرون باسم المهدي.

ورغم أن المتصوفة -المتصوفة من أهل السنة- يصرح بعضهم بالولاية الخاصة للمهدي (عج)، لكنهم تحدثوا أحيانا عن المهدوية النوعية بمعنى أنّه يجب أن يكون هناك مهدي في كل عصر وزمان، وأنّ أي عصر لا يخلو من المهدي.

ويُشاهد أحياناً في معتقداتهم قولهم أن لا ضرورة لتحديد أن المهدي من ذرية من وما هي مواصفاته. وكانوا ينتظرون أحياناً ظهور الفاطمي المنقذ، ويمكن مشاهدة هذا التضاد والإضطراب بوضوح في كلام ابن العربي. فالمهدي من وجهة نظرهم في بعض الأحيان هو ولي صاحب كرامات ويحظى بمقام ختم الولاية (علال الفاسي، م.ن، ص ٢٩-٣٨؛ لطفي عيسى، م.ن، ص ٤٤٨-٤٥١، ٤٦٦-٤٦٧؛ مكاوي، م.ن، ص ٣٠-٣١؛ جهانغيري، ص ٣٤٧-٣٥٢).

وفي ضوء ولاء الناس للمتصوفة ومعتقداتهم أصبحت الأرضية جاهزة من كل النواحي لاستخدام العقيدة المهدوية، وقد استفاد السعديون الذين كانوا يدّعون بأنّ نسبهم علوي، كثيراً من هذا الوضع.

إنّ محاولات عدد من المتصوفة في مختلف مناطق المغرب للتعريف بالسعديين باعتبارهم أسرة شريفة - في حين كانت شبهات تدور حول نسبهم - وإبراز محمد بن عبد الرحمن بن مخلوف (٩١٦-٩٢٣ هـ.ق) الذي كان يتولى في تلك الحقبة زعامة السعديين وطرح روايات عن زهده وكراماته، ومن أنّ كبار مكة أُخبروا عن ولايته (الناصري السلاوي، م.ن، ج ٥، ص ١٥؛ العقاد، ١٩٩٣، ص ٥٠) كل ذلك تسبب في أن يلقب بلقب القائم بأمر الله وأن يتولى الجهاد مع الإدعاء

بالإصلاح ومحو الظلم، فقد سجل انتصارات كبيرة بمساعدة أبنائه (قادري، م.ن، ج ١، ص ٣٦٨-٣٦٩؛ الناصري السلاوي، م.ن، ج ٥، ص ١٤-١٥؛ كريم، ١٣٩٧، ص ٤٦-٥٠). الدعاية الواسعة التي مارسها أبناء محمد القائم والجهاد في مناطق مختلفة من المغرب والتأكيد على أنّهم من العلويين، ساعدهم على تحقيق ذلك. وبعد محمد القائم تولّى ابنه ابوالقاسم أحمد الملقب بالشيخ المهدي، قيادة الجهاد في المغرب، وأسس دولة السعديين بعد إنقراض دولة الوطاسيين بالكامل.

والنقطة المهمة فيما يخص دور الفكر المهدوي في قيام سلطة السعديين وديمومتها، هي أنّه على الرغم من أنّها قامت على أساس الدعوة للاصلاح والقضاء على الظلم والحيف والفساد وتحت اسم المهدوية المبنية على التصوف وحماية الصوفيين ونزلاء الزوايا، لكنها عندما مارست الحكم لم تستطع المضي قدماً على أساس قيم المهدوية ومارست الضغط والمراقبة بقوة على المتصوفة ونزلاء الزوايا الذين ناصروها في إقامة الدولة، وبالتالي فإن هذه الدولة سارت شيئا فشيئا على طريق التراجع والسقوط وانهارت في النهاية. عندها اتجه الناس نحو فريق آخر من الشرفاء والتفوا حول العلويين (١٠١٤ هـ.ق.فصاعداً) في مواجهة الغزاة الأجانب (لطفي عيسى، م.ن، ص ٤٥٩-٤٦١).

وتولى الشرفاء العلويون السلطة عندما كان يمر المغرب في ذروة الإدعاءات بالمهدوية لاسيما من جانب الطرق الصوفية المتعددة، وانتشرت هذه القضية في المغرب لدرجة أن أثارت الإدعاءات المتتالية بالمهدوية الضجر والملل لدى الناس. و الشيء الملفت في قيام سلطة الشرفاء العلويين من سجلماسة، هو أنّه لا توجد أخبار تتحدث عن أنّهم اطلقوا أيّ مزاعم لإصلاح المجتمع ومواجهة الظلم والجور والفساد، وإجمالاً الإدعاء بالمهدوية. فقد قاموا من خلال التركيز على نسبهم والإفادة منه من دون الإدعاء بالمهدوية بمواجهة أدعياء المهدوية بشدة. لكن وفي أعقاب طلب السلطان العلوي من رجال الدين لإصدار فتوى تجيز مجاراة الغزاة الأوروبيين بسبب عجز الدولة عن مواصلة الحرب معهم، انحسرت قدرة المهدوية تدريجياً في المغرب و لم تعد تملك تلك القوة التي كانت تتمتع بها سابقا.

إستنتاج

إن المغرب الإسلامي وبسبب ظروفه الطبيعية – الجغرافية الصعبة والسياسية، كان على الدوام وأكثر من أي مكان آخر، جاهزاً لتقبّل المفاهيم الموعودية والشخصيات المتقبلة لفكرة المنقذ وقد وجدت عقيدة المنقذ الموعود أرضية أفضل في المغرب. وقد تعززت هذه الفكرة لدى المغاربة الذين كانوا دائماً بانتظار المنقذ الموعود بعد الإسلام لاسيما في ظل وجود مجموعات من الشيعة هناك، وظهرت في إطار العقيدة المهدوية بين المغاربة بحيث أنّ الأشخاص والحكومات العديدة، أنشأت سلطتها ودولتها إستنادا إلى هذه الفكرة، وأعلنت أن دولتها هي دولة المهدي الموعود من خلال تلفيق الأحاديث والروايات لصالحها. وقد بلغت العقيدة المهدوية ذروتها منذ القرن السادس الهجري القمري فصاعداً وذلك مع دخول بعض الأفكار الصوفية إلى هذه العقيدة. وكان السعديون من الدول التي حكمت المغرب واستخدمت الفكرة المهدوية لحسابها. وقد جعلت الظروف السياسية – الإجتماعية والاقتصادية التي كانت تسود المغرب في القرنين السابع والثامن الهجري القمري البيئة المغاربية أكثر استعداداً من أي وقت مضى لتقبل هذه الفكرة. بحيث أن هذا العصر شهد ذروة العقيدة المهدوية وظهر فيه العديد من الأفراد الذين ادعوا المهدوية في المغرب، فضلاً عن أنّ نفوذ الأفكار الصوفية الخاصة والإمتداد الأوروبي عند الحدود الإسلامية والضغوطات التي كانت تمارس ضد سكان المنطقة، ساهمت

في إذكاء الإعتقاد. لذلك فإنّ السعديين ضمن دعمهم للصوفية ومعتقداتهم وإدارة الجهاد وتحقيق الكثير من الإنتصارات على الأوروبيين، وتسمية قائدهم باسم محمد القائم، اعتبروا أن دولتهم هي دولة المهدي الموعود.

فهرس المصادر والمراجع

[١] ابن الأبار، محمد بن عبد الله، الحلة السراء في أشعار الأمراء، برعاية حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥م.

[٢] ابن أبي زرع، علي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور، ١٩٧٢ م.

[٣] ـــــ، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، دار المنصور، ١٩٧٢ م.

[٤] ابن الأثير، عز الدين علي، الكامل في التاريخ، بيروت، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٩ م.

[٥] ابن الأحمر، اسماعيل بن يوسف، روضة النسرين في دولة بني مرين، الرباط، المطبعة الملكية، ٢٠٠٣ م.

[٦] ابن الحاج سلمى، محمد طالب، الإشراف على بعض من بفاس من مشاهير الأشراف، تطوان، جمعية تطوان، ٢٠٠٤ م.

[٧] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣ هـ.ق.

[٨] ابن السماك، محمد بن أبي العلاء، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، طباعة سهيل ذكار، عبد القادر زمامة، لا تا، دار الرشاد الحديثة، ١٩٧٩ م.

[٩] ابن القاضي، أحمد بن محمد، درة الحجال في أسماء الرجال، القاهرة، دار التراث، مكتبة العتيقة، ١٩٧٠ م.

[١٠] ابن القطان، علي بن محمد، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، بيروت، دار المغرب الإسلامي، ١٩٩٠ م.

[١١] أبوداود، سليمان بن أشعث، سنن أبو داود، مصر دار احياء السنة النبوية، لا تا.

[١٢] إسفنديارى، مصطفى، حجت موجه، طهران، دار حكمت للنشر، ١٣٨٦ هـ.ش.

[١٣] بدوي، عبد الرحمن، تاريخ الأفكار الكلامية في الإسلام، ترجمة حسين صابري، مشهد، الروضة الرضوية، ١٣٧٤ هـ.ش.

[١٤] بل، آلفرد، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار المغرب الإسلامي، ١٩٨٧ م.

[١٥] بن عبد الله، عبد العزيز، معلمة التصوف الإسلامي في المغرب، الرباط، مطبعة الرسالة، ١٩٩٨ م.

[١٦] بوركبة، سعيد، دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في عهد الدولة العلوية، المغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٦ م.

[١٧] البيومي، محمد، المهدي المنتظر وأدعياء المهدية، القاهرة، مكتبة الإيمان، ١٩٩٥ م.

[١٨] جاسم، حسين، تاريخ سياسي غيبت امام دوازدهم (عج)، ترجمة سيد محمد تقي آيت اللهي، طهران، امير كبير، ١٣٦٧ هـ.ش.

[١٩] حجي، محمد، الزاوية الدلانية ودورها الديني والعلمي والسياسي، الرباط، المطبعة الوطنية، ١٩٦٤ م.

[٢٠] حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، لا تا، دار الرشاد الحديثة.

[٢١] الحريري، محمد عيسى، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، الكويت، دار القلم، ١٩٨٧ م.
[٢٢] حكيمي، محمد رضا، خورشيد مغرب (شمس المغرب)، طهران، دفتر نشر فرهنك اسلامي ١٣٦٠ هـ.ش.
[٢٣] خسرو شاهي، سيد هادي، الشيخ عبد المحسن العباد، مصلح جهاني ومهدي موعود از ديدكاه أهل سنت (المصلح العالمي و المهدي الموعود من وجهة نظر أهل السنة)، طهران، نشر اطلاعات، ١٣٧٢ هـ.ش.
[٢٤] دار المستتر، المهدي (عج) از صدر اسلام تا قرن سيزدهم هجري (المهدي (عج) من صدر الإسلام إلى القرن الثالث عشر الهجري)، ترجمة محسن جهانسوز، طهران، انتشارات ادب، لا تا.
[٢٥] زركشي، محمد ابراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، طباعة محمد ماضور، تونس، مكتبة العتيقة، لا تا.
[٢٦] صادقي، مصطفى، تحليل تاريخي نشانه ظهور (تحليل تاريخي لعلامة الظهور)، قم، معهد أبحاث العلوم والثقافة الإسلامية، ١٣٨٥ هـ.ش.
[٢٧] ضعيف، محمد بن عبد السلام، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعدية) فاس، دار المأثورات، لا تا.
[٢٨] عبد السلام طويلة، عبد الوهاب، المسيح المنتظر ونهاية العالم، القاهرة، دار السلام، ٢٠٠٧ م.
[٢٩] العقاد، صلاح، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٣ هـ.ش.
[٣٠] عنان، محمد عبد الله، الدولة الإسلامية في الأندلس، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٨ هـ.ق.
[٣١] عيسى، لطفي، المغرب المتصوفة (الانعكاسات السياسية والحراك الإجتماعي من القرن ١٠ إلى القرن ١٧ م) تونس، مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٥ م.
[٣٢] غنيمي، عبد الفتاح مقلد، موسوعة تاريخ المغرب العربي، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٤ م.
[٣٣] الفاسي، علال، التصوف الإسلامي في المغرب، الرباط، مطبعة الرسالة، ١٩٩٨ م.
[٣٤] قادري، محمد بن طبيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر، الرباط، مكتبة الطالب، ١٩٨٦ م.
[٣٥] القاضي نعمان، نعمان بن محمد بن حيون، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٩ هـ.ق.
[٣٦] قندزي، سليمان بن ابراهيم، ينابيع المودة لذوي القربى، قم، دار الاسوة، ١٤١٦ هـ.ق.
[٣٧] كريم، عبد الوهاب، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط، جامعة محمد الخامس، كلية الاداب والعلوم الإنسانية، ١٩٧٧م.
[٣٨] غلدزيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة يوسف موسى، علي حسن عبد القادر، عبد العزيز عبد الحق، مصر، دار الكتب الحديث، لا تا.
[٣٩] لابيدوس، ايرام، تاريخ المجتمعات الإسلامية منذ البداية وحتى القرن ١٨، ترجمة محمود رمضان زادة، مشهد، مركز الأبحاث الإسلامية، الروضة القدسية، ١٣٧٦ هـ.ش.
[٤٠] المراكشي، عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٠٦ م.
[٤١] مشكور، جواد، تاريخ الشيعة والفرق الإسلامية حتى القرن الرابع للهجرة، طهران، نشر اشراقي ١٣٦٨ هـ.ش.
[٤٢] مكاوي، هدى، البناء الإجتماعي للمهدية في السودان، القاهرة، مكتبة مدبولي ٢٠٠٧ م.

[٤٣] مؤنس، حسين، فجر الأندلس، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٩ م.
[٤٤] ـــــــ، تاريخ المغرب وحضارته، بيروت، العصر الحديث، ١٤١٤ هـ.ق/ ١٩٤٤ م.
[٤٥] الناصري السلاوي، أحمد بن خالد، الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، المغرب، منشورات وزارة الثقافة والإتصال، ٢٠٠١ م.
[٤٦] ناصري طاهري، عبد الله، مقدمه اي بر تاريخ سياسي - اجتماعي شمال افريقا از آغاز تا ظهور عثمانيها (مقدمة على التاريخ السياسي- الإجتماعي لشمال افريقيا منذ البداية حتى ظهور العثمانيين)، طهران، سازمان جاب وانتشارات وزارت فرهنك وارشاد اسلامي، ١٣٧٥ هـ.ش.
[٤٧] النجار، عبد المجيد، المهدي بن تومرت، بيروت، دار المغرب الإسلامي، ١٤٠٣ هـ.ق.
[٤٨] نجفي، عبد الله، التصوف والبدعة بالمغرب، طائفة العكاكزة، المغرب، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٤٢١ هـ.ق/٢٠٠٠ م.
[٤٩] نصر، سيد حسين، قلب الإسلام، ترجمة مصطفى شهر آييني، طهران، انتشارات حقيقت، ١٣٨٣ هـ.ش.
[٥٠] نفيسي، سعيد، سرجشمه تصوف در ايران(مصدر التصوف في إيران)، طهران، لا تا، ١٣٤٣ هـ.ش.
[٥١] نوري يحيى، تحقيقي تاريخي وعلمي درباره تشيع امامت، امامان، مهدويت (بحث تاريخي و علمي حول التشيع، الإمامة، الأئمة و المهدوية)، طهران، انتشارات علمي واسلامي، مدرسة الشهداء، ٢٠٠٧ م.
[٥٢] الوفراني، محمد الصغيرين الحاج بن عبد الله، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، الرباط، مكتبة الطالب.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

مهدویت و نقش آن در قدرت‌گیری شرفا (سعدیان و علویان) در مغرب اسلامی

لیلا خان احمدی[۱]، غلامرضا ظریفیان[۲]، حسن حضرتی[۳]، رسول جعفریان[٤]

تاریخ دریافت: ۱۳۹۰/۳/۳۱ تاریخ پذیرش: ۱۳۹۰/٦/۲۱

مغرب اسلامی به‌دلیل موقعیت طبیعی و جغرافیایی ویژه و مناسب، در طول تاریخ خود همواره پذیرای شخصیت‌های مسیحایی و مستعد پذیرش مفاهیم موعودی بود و اندیشه منجی موعود از قبل اسلام در این سرزمین ریشه دوانیده و بعد اسلام نیز حضور برخی جریانات سیاسی- دینی و به‌ویژه حضور گروه‌هایی از شیعیان و علویان این اندیشه به‌صورت مهدی باوری و مهدویت تقویت شد و رشد کرد. جریانات متعددی از این اندیشه در رسیدن به اهداف سیاسی خود بهره بردند.

با توجه به أسامی و ألقاب موسس و برخی حاکمان سلسله سعدیان و علویان از شرفا حسنی و انطباق آن با القاب مهدی موعود - در احادیث شیعه واهل سنت – ظاهرا این گروه از شرفا نیز از توجه به اندیشه مهدویت و نفوذ آن در نزد مغربیان غافل نبودند. لذا نوشته حاضر بر آن است تا با روش توصیفی – تحلیلی به بررسی این پرسش بپردازد که آیا اندیشه مهدویت در شکل‌گیری قدرت شرفا سعدی و علوی نقش داشته است؟ و فرضیه مطرح این است که اندیشه مهدویت یکی از عوامل مهم در قدرت‌گیری شرفا به‌ویژه سعدیان بوده است.

کلید واژگان: مهدویت، مغرب اسلامی، شرفا، سعدیان، علویان

۱. دانشجوی دکترای دانشگاه تهران، ahmadyleila87@yahoo.com

۲. استادیار گروه تاریخ دانشگاه تهران

۳. استادیار گروه تاریخ دانشگاه تهران

٤. استادیار گروه تاریخ دانشگاه تهران